السَّيِّدَةُ نَفِيسَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

خلق الناس من أشجار شتى، وخُلقت أنا وعلىّ بن أبى طالب من شجرة واحدة، أنا أصلها، وفاطمة فرعها، وعلى لقاحها، والحسن والحسين ثمارها، وشيعتنا أوراقها، فمن تَعَلَّق بغصن من أغصانها ساقه إلى الجنة، ومن تركها هوى إلى النار»

نفيسة الدارين..

نفيسة العلم..

نفيسة الطاهرة..

نفيسة العابدة..

نفيسة المصريين..

وسيدة أهل الفتوة والتصريف، والسيدة الشريفة العلوية، وصاحبة الكرامات الطاهرة الوفيرة، والمناقب الفاخرة وأم العواجز، والسيدة المرضية، ومشبعة المحروم، وهى السيدة النقية، العفيفة، الزاهدة، الساجدة، الراكعة، المحدّثة، المتبحرة، المتضلعة، الكثيرة النفحات، الغزيرة البركات، والبضعة المنيفة الناضرة، والزهرة الزاهرة سليلة النبوّة، وفرع الرسالة، وجنح الرحمة، كريمة

العنصر والمنبت من آل بيت من اصطفاه الله، رسول الله محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم، أولئك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

هذه ألقاب السيدة نفيسة رضى الله عنها..

١ - فهى نفيسة الدارين: لعوارفها وصنائعها وشفاعتها يوم القيامة لقاصديها، وبجناح الرحمة: لتواضعها وخضوعها لبارئها، وشفقتها ورحمتها وبرها وصلتها لذويها ومعتفيها وقاصديها ويستظل زائرها بجناح رحمتها.

٢ - وهى نفيسة العلم، لما استنبطته من دخائل العلم، واستجلته من غوامضه، وما نثرته على طالبى الاستفادة منها، فكان يرجع إليها فى المشكلات، ويستصبح بضوئها فى المعضلات، وتشدّ إليها الرحال من أطراف البلاد فى طلب ما حذقته وأحكمته من علوم بيت النبوة، ويكفى أن نذكر هنا أنها تعلمت القراءة والكتابة قبل أن تبلغ السابعة من عمرها، وهى بلا شك علامة كبيرة مميزة تنبئ بما ينتظرها فى مستقبلها، وقد ساعدها ذلك على أن تحفظ القرآن الكريم وتجيده فى سن مبكرة.

٣ - وهى نفيسة الطاهرة: لطهارتها وتعبّدها، وهى السيدة العظيمة العابدة النقية الطاهرة.

٤ - وهى نفيسة العابدة: لعبادتها وتقواها، فإنها كانت من

السائحات العابدات الصالحات القانتات، تصوم نهارها وتقوم ليلها، وقد حجّت ثلاثين حجة أكثرها وهى ماشية، وكانت تتعلق بأستار الكعبة وتقول: «إلهى وسيدى ومولاى، متعنى وفرحنى برضاك عنى، فلا تسبب لى سببًا يحجبك عنى».

٥ - وهى نفيسة المصريين: لحب أهل مصر لها، ويكفى أن أقول فى أول هذا البحث، كما سيأتى بعد ذلك تفصيلا، أنها لما عزمت على الرحيل من مصر إلى بلاد الحجاز، شقّ ذلك على أهل مصر وسألوها فى الإقامة لحبّهم لها، كما أجمع أهل السير والتاريخ على وفاة السيدة نفيسة بالقاهرة، كما أجمعوا على أنها لما توفيت وصل زوجها فى ذلك اليوم وأراد حملها إلى المدينة لدفنها بالبقيع، فاجتمع أهل مصر إلى أمير البلد، واستجاروا به إلى زوجها ليردّوه عما أراد، وقد دفنت فعلا بالقاهرة كما سيأتى تفصيله، ولذلك كان المصريون يسمونها بنفيسة المصرية.

مولدها، ولماذا سميت باسم (نفيسة)؟

ولدت السيدة الطاهرة بمكة المكرمة، فى يوم الأربعاء الحادى عشر من شهر ربيع الأول سنة خمس وأربعين ومائة من الهجرة النبوية، وقد فرحت أمها بمولدها، واستبشر بها أبوها، وعمّت الفرحة أكناف بيتها، وقد زاد فى سرور أبيها وبهجته، أن تكشف

فى سيماها شبهًا عظيمًا بأخته عمتها السيدة نفيسة بنت زيد رضى الله عنها، وهى التى تزوج بها الخليفة الوليد بن عبد الملك، فاختار لها أبوها اسم عمتها لنفاستها، وما تبينه لبنته من وسام وقسام اختصت بهما أخته، وتفاؤلا بأن يكتب الله لها حظ عمتها، وما واتاها من سعادة ونعماء، وما لها من آثار وحظوة؛ إذ كانت محببة، ولها اليد البيضاء فى خلافة زوجها، إذ أنها دفعته إلى ما قام به فى عهده، فقد فتحت فى عهده فتوح عظيمة، وكان يتكفل بالأيتام، ويرتب لهم معاشهم، ومن يرعاهم، ومن يقوم بخدمتهم، وللعميان من يقودهم، وعمر المسجد النبوى ووسعه ورزق الفقهاء والضعفاء والفقراء، وأسبغ عليهم، وحرّم الاستجداء، وفرض لذوى الحاجات ما يكفيهم، وقد ضبط أمور الخلافة أتم ضبط.

عمّة السيدة نفيسة فى مصر:

ومن المصادفات الغريبة أن عمة السيدة نفيسة رضى الله عنها رحلت إلى مصر وتوفيت بها، ومقامها بالقرب من السيدة نفيسة؛ إذ أنها دفنت بالدار التى وهبت لها من والى مصر أخى زوجها عبد الله بن عبد الملك بن مروان، وكانت من الصالحات، وقد توفيت قبل وفاة بنت أخيها.

والدها :

هو أبو محمد الحسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن السبط ابن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين، فهى من دوحة النبوة التى طابت فرعًا، وزكت أصلا، ومن شعبة الرسالة التى سمت رفعة ونبلا قد اكتنفها العز والشرف، ولازمها السؤدد والكرامة :

يا حبذا روضة فى الخلد نابتة ما مثلها أبدًا فى الخلد من شجر
المصطفى أصلها والفرع فاطمة ثم اللقاح علىّ سيد البشر
والهاشميان سبطان لها ثمر والشيعة الورق الملتف بالثمر
هذا مقال رسول الله جاء به أهل الرواية فى العالى من الخبر
إنى بحبهم أرجو النجاة غدا والفوز فى زمرة من أفضل الزمر

وكان والدها إمامًا عظيمًا، وعالما جليلا من كبار أهل البيت معدودا من التابعين، مجاب الدعوة فاضلا شريفًا.

وفى سنة خمسين ومائة عزَل الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور عامله، جعفر بن سليمان عن إمرة المدينة، وولاها الحسن بن زيد، وقد بقى والياً على المدينة إلى أن عزله المنصور لوشاية فيه سنة ست وخمسين ومائة، فإن الحسن كان قد اصطفى ابن أبى ذئب محمد ابن عبد الرحمن بن المغيرة، وآواه وأكرمه، لكنه لم يأمن فلتات لسانه، فإن ابن أبى ذئب

ذهب إلى المنصور وأخبره بأن الحسن يطمع فى الخلافة، ويعمل على عودها للعلويين، فثارت ثائرة المنصور، وأمر بعزل الحسن وحبسه، وقد تسرع ابن أبى ذئب فى وشايته، إذ أنه غلب على ظنه طمع آل البيت فى الخلافة، وما يعرفه أنها حق لهم وهم أولى بها من غيرهم، مع أن الحسن كان معروفًا بمظاهرته لبنى العباس، ومناصرته لدولتهم، وكان أول من لبس السواد شعار العباسيين من العلويين، وقد لبث الحسن فى حبسه إلى أن ولى المهدى الخلافة، وكان يعرف منه علمه واعتداله، وزهادته وعبادته، فأمر بإخراجه من حبسه، وقرّبه منه واصطفاه.

وكان الحسن ذا حزم فى ولايته، وعزم فى إمرته، وشدة فى أخذ الناس بالحدود وحرمات الله، لا تأخذه رأفة فى دين الله، ولا تقفه رحمة عن إقامة حدوده.

ولما عاد إلى المدينة لم يعاتب ابن أبى ذئب.

ولما توفى أبوه زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب وهو غلام، وترك عليه دينًا أربعة آلاف دينار، فحلف السيد حسن ألاّ يظل رأسه سقف إلاّ سقف مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو بيت رجل يكلّمه فى حاجة حتى يقضى دين أبيه، فوفى بنذره، ووفى دين أبيه.

ومن كرمه أنه أتى بشاب شارب متأدب وهو عامل على المدينة

فقال : (يا ابن رسول الله لا أعود)، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم » وأنا ابن أبى أمامة ابن سهل ابن حنيف، وقد كان أبى مع أبيك كما علمت، فقال : صدقت، هل أنت عائد، قال : لا والله، فأقاله وأمر له بخمسين دينارًا، وقال له : تزود بها وعد إلى، فتاب الشاب، فكان الحسن يحسن إليه، وكان الحسن والد السيدة نفيسة مجاب الدعوة، يقال : مرت به امرأة وهو فى الأبطح ومعها ولدها ! فاختطفه عقاب، فسألت الحسن أن يدعو الله لها بردّه، فرفع يديه إلى السماء ودعا ربه، فإذا بالعقاب قد ألقى الصغير من غير أن يضره بشىء، فأخذته أمه.

ودخل عليه بعض الشعراء فأنشده.

* الله فرد وابن زيد فرد *

فقال : بفيك الأثلب، ألا قلت :

* الله فرد وابن زيد عبد *

ونزل عن سرير الإمارة، وألصق خدّه بالأرض، يسبح الله العلى الكبير، وكان رضى الله عنه جليلا جميلا، سريًّا، سخيًا.

وفيه يقول الشاعر :

إذا أمسى ابن زيد لى صديقا فحسبى من مودته نصيبى

وقال آخر :

إلى حسن بن زيد بات نضوى ... يجوب السهل وهْنًا والأكاما
إلى رجل أبوه أبو المعالى ... وأول مؤمن صلى وصاما
أأشتم أن أحبك يابن زيد ... وأن أهدى التحية والسلاما
وقد سلفت علىّ له أياد ... تعيش الروح منها والعظاما
وكان هو المقدم من قريش ... ورأس العز منها والسناما
وخيرهم لجار أو لصهر ... بتسكين الكلالة والذماما
وكان أشدهم عقلا وحلمًا ... وأبرحهم إذا ازدحم الزحاما

وكان الحسن كثير الثراء، وله مال بالغابة، وقصره الحمراء كان من أعظم قصور المدينة، وقد أتاه مصعب بن ثابت الزبيرى وابنه عبد الله وهو يريد الركوب إلى ماله بالغابة فأنشده مصعب :

يابن بنت النبى وابن علىّ ... أنت أنت المجير من ذا الزمان
من زمان ألحّ ليس بناج ... منه من لا يجيره الخافقان
من ديون تنوعنا فادحات ... من يد الشيخ من بنى ثوبان
فى صكاك مكتبات علينا ... بمئين إذا عددن ثمان
بأبى أنت إن أخذن وأمى ... ضاق عيش النسوان والصبيان

فأرسل الحسن إلى ابن ثوبان فسأله فقال : على الشيخ سبعمائة وعلى ابنه مائة فقضى عنهما دينهما وأعطاهما مائتى دينار.

وقد خلف الحسن من الذكور تسعة ومن البنات اثنتين السيدة

أم كلثوم وقد تزوج بها أبو العباس السفاح الخليفة العباسى والسيدة نفيسة، ولم يبلغ واحد من أولاده من الشهرة وذيوع الذكر ما بلغته ابنته السيدة نفيسة فهى درّته اليتيمة وغرّته الوضاءة.

وأولاده الذكور هم: القاسم ومحمد وعلى وإبراهيم وزيد وعبد الله ويحيى وإسماعيل وإسحاق، أما أمهم فأم سلمة واسمها زينب بنة الحسن عمه ابن الحسن بن على بن أبى طالب.

وتزوج أم كلثوم عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم.

وقد توفى سنة ١٦٨ وهو فى طريقه إلى الحج فى صحبة أمير المؤمنين المهدى ودفن فى الحجاز، وقيل بالحاجر، ويذكر الشعرانى أنه مدفون بتربته المشهورة قريبا من جامع القراء بين مجراة القلعة (العيون) وجامع عمرو بن العاص ويغلب على الظن أنه دفن بالحاجر فى الطريق إلى مكة.

وروى أن الإمام زيد الأبلج والد السيد حسن الأنور، كان يأخذ بيد ولده الحسن ويدخل إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم ويقول: «يا سيدى يا رسول الله هذا ولدى الحسن أنا عنه راض»، ثم يرجع وينصرف، فلما كان فى بعض الليالى نام فرأى المصطفى صلى الله عليه وسلم، وهو يقول له: «يا زيد إنى راض عن ولدك الحسن برضاك عنه، والحق سبحانه وتعالى راض عنه

برضاى عليه»، وجاء الحسن بالسيدة نفيسة إلى المدينة، وكان دائمًا يأخذ بيدها ويدخل بها إلى القبر الشريف ويقول: «يا رسول الله إنى راض عن بنتى نفيسة» ويرجع، فما زال يفعل حتى رأى الرسول صلى الله عليه وسلم فى المنام وهو يقول: يا حسن إنى راض عن ابنتك نفيسة برضاك عنها، والحق سبحانه وتعالى راض عنها برضاى عنها»[1].

وزيد الأبلج هو ابن الحسن السبط بن سيدنا الإمام.

ويكفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يقول لسيدنا علىّ: «ادْنُ منى يا علىّ، خلقت أنا وأنت من شجرة أنا أصلها وأنت فرعها والحسن والحسين أغصانها فمن تعلق بغصن منها أدخله الله الجنة».

من هذا الغصن غصن القرن الأول للهجرة، جاءت نفيسة إحدى أغصان رياحين القرن الثانى.

---

(١) وجد ما يدل على دفن السيد زيد الأبلج بالقاهرة قريبا من جامع القراء بين عجرة القلعة وجامع عمرو، فى التربة المشهورة قريبا من جامع القرء، فقد وجد حجر عتيق شرق مقام ولده السيد حسن الأنور بقرب جامع عمرو بعد عجرة القلعة بقليل مرقوم عليه نسب زيد.

أما الإمام محمد الأنور عم السيدة نفيسة فى المشهد القريب من عطفة جامع طولون مما يلى دار الخليفة فى الزاوية التى ينزل إليها بدرج، وهو على يمين الطالب للسيدة سكينة ومكتوب على بابه فى لوح رخام هذا البيت:

مسجد حل فيه نجل لزيد ذلك الأنور الأجل محمد

أمها :

أما أمها فأم ولد، وأما إخوتها فأمهم أم سلمة زينب بنت الحسن ابن الحسن بن علىّ رضى الله عنهم، وليس ذلك بضائرها ولا ما ينقص من قدرها فقديمًا تسرّى الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام هاجر فولدت له إسماعيل عليه السلام، فكان من نسله صفوة خلق الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وقد تسرّى رسول الله صلى الله عليه وسلم مارية القبطية فولدت إبراهيم عليه السلام، وقد كان أبوها الحسن من أم ولد، وكذا زيد بن علىّ رضى الله عنهما من أم ولد، وقد دخل على هشام بن عبد الملك، فقال له هشام : بلغنى أنك تحدث نفسك بالخلافة ولا تصلح لها لأنك ابن أمة، فقال له : أما قولك انى أحدث نفسى بالخلافة، فلا يعلم الغيب إلاّ الله تعالى : وأما قولك إنى ابن أمة فإسماعيل ابن أمة أخرج الله من صلبه خير البشر محمد صلى الله عليه وسلم وإسحاق ابن حرة أخرج من صلبه القردة والخنازير، فقال له : قم. فقال : إذن لا ترانى إلاّ حيث تكره. فلما خرج من الدار قال : ما أحب أحد الحياة إلاّ ذلّ : فقال سالم مولى هشام : بالله لا يسمعن هذا الكلام منك أحد، وقد كان زيد رضى الله عنه من أحسن بنى هاشم عبادة وأجلهم سيادة، وكانت ملوك بنى أمية تكتب إلى صاحب العراق أن امنع أهل الكوفة من حضور مجلس

زيد بن على، فإن له لسانًا أقطع من ظبة السيف، وأحدّ من شبا الأسنّة، وأبلغ من السحر والكهانة ومن النفث فى العقد.

وقال الشعبى: والله ما ولدت النساء أفضل من زيد بن علىّ ولا أفقه ولا أشجع ولا أزهد.

وقال أبو حنيفة: شاهدت زيد بن على كما شاهدت أهله، فما رأيت فى زمانه أفقه منه ولا أعلم ولا أسرع جوابًا ولا أبين قولا، لقد كان منقطع النظير وكان يدعى بحليف القرآن قرأ مرة قوله تعالى: ﴿وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾، فقال: إن هذا لوعيد وتهديد من الله تعالى، ثم قال: اللهم لا تجعلنا ممن تولى عنك فاستبدلت به بديلا..

وقبل ذلك أعتق جدّه الحسين بن علىّ رضى الله عنهما جارية له وتزوج بها، وقد كان لمعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما بالمدينة من يكتب إليه بما يكون من أمور الناس وقريش خاصة، فكتب إليه أن الحسين بن على أعتق جارية له فتزوجها، فكتب معاوية إلى الحسين: «من أمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن علىّ، أما بعد فإنه بلغنى أنك تزوجت بجاريتك وتركت أكفاءك من قريش ممن تستحسنه للولد وتمجد به فى الصهر، فلا لنفسك نظرت ولا لولدك انتقيت».

فكتب إليه الحسين رضى الله عنه :

أما بعد فلقد بلغنى كتابك وتعييرك إياى بأنى تزوجت مولاتى وتركت أكفائى من قريش، فليس فوق رسول الله صلى الله عليه وسلم منتهى فى شرف ولاغاية فى نسب، وإنما كانت ملك يمينى خرجت عن يدى بأمر التمست فيه ثواب الله تعالى : ثم ارتجعتها على سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وقد رفع الله بالإسلام الخسيسة، ووضع عنّا به النقيصة فلا لوم على امرئ مسلم إلّا فى أمر مأثم، وإنما اللوم لوم الجاهلية ».

فلما قرأ معاوية كتابه نبذه إلى يزيد فقرأه، وقال : لشدّ ما فخر عليك الحسين. قال : لا ولكنها ألسنة بنى هاشم الحداد التى تفلق الصخر وتغرف من البحر، وقد بينت ذلك كله فى الفصول السابقة الخاصة بأهل البيت.

وقال الأصمعى : كان أكثر أهل المدينة يكرهون الإماء حتى نشأ فيهم علىّ بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله رضى الله عنهم، ففاقوا أهل المدينة فقهًا وعلمًا وورعاً، فرغب الناس فى السرارى وأقبلوا على الزواج منهن، وقد تزوج علىّ زين العابدين رضى الله عنه جارية له بعد أن أعتقها، فبلغ ذلك عبد الملك ابن مروان فكتب إليه يؤنبه على فعلته فكتب إليه علىّ :

إن الله رفع بالإسلام الخسيسة وأتم به النقيصة وأكرم به من اللؤم.